من وراء البحار

أندريه مالرو وناقدوه

فى مجلة « سكروتنى » عدد الربيع بحث هام بقلم مستر ميسون الأديب والناقد الانجليزى عن أندريه مالرو الأديب الفرنسى الذى قامت حوله ضجة فى هذه الأيام ، وعن الناقدين الفرنسيين الذين تعرضوا له بالمدح أو الذم .

ويعد هذا المقال أيضاً بمثابة وصف لحالة النقد الفرنسى فى فرنسا . ويظهر أن مستر ميسون يرى أن النقد الأدبى فى فرنسا متأخر . فهو يقول إنه نظر فى المجلات الفرنسية الشهرية التى تعنى بالنقد، فأمكنه أن يتذكر فى الحال أسماء خمس عشرة مجلة كبيرة لكل منها جماعة من الناقدين ، ولكن الفحص لهذه الكمية الكبيرة من الكتابات النقدية يؤدى إلى نتيجة غريبة ؛ فهو يدهش إذ يرى أنه لم يجد منها المساعدة التى كان ينتظرها ، إذا بحث عن كاتب حديث كألبير كامو مثلا . وهو يرى أن هذا الاهمال فى تتبع الأعمال الأدبية ونقدها ، ليس علة من العلل التى ظهرت فيما بعد الحرب ، بل هو يظن أن تفكيره فى المجلة الفرنسية الجديدة *N.R.F.* التى كانت تصدر قبل الحرب ، يؤدى به إلى أن يقول إنه لم يجد فيها إلا القليل مما يتخذ نموذجاً فى النقد الأدبى .

فمثل هذا البحث البسيط يدل على مشكلة لها شئ من الأهمية ، ويبعث على الريبة فى نوع الاهتمام الكبير الذى يجده الأدب فى هذه الأيام . ولعل من أهم مظاهر الأدب الفرنسى فى هذه الأيام ، الاحترام الكبير للروائيين الأمريكيين . فلقد ابتدأ الفرنسيون منذ سنة ١٩٣٠ ينقلون روايات فولكنر وهمنجواى وكلدويل ودوس باسوس وشتاينبك إلى لغتهم . ولعل هذا العمل هو أهم الحوادث فى تاريخ الأدب الفرنسى المعاصر . وهو يقول أنه ليس بين يديه إحصاءات ، ولكن نظرة يلقيها على دليل أحد الناشرين تظهر له تفوق الروايات الأمريكية على المنتجات الأدبية الوطنية . ويكتب كبار الأدباء الفرنسيين المقدمات لهذه

الروايات أو يعلقون عليها تعليقاً طويلا فى المجلات ، ويقول مسيو سارتر إن «ثلثى المؤلفات المخطوطة التى يقدمها الشبان للمجلة التى يديرها هى تقليد لكالدويل أو همنجواى أو دوس باسوس » .

وتأثير السياسة فى الأدب هو الآن قوى كما كان دائماً قويا فى تاريخ فرنسا . فالمناقشة حول الماركسية التى شغلت عالم الأدب الانجليزى قبل الحرب ، وانتهى الأدباء منها ، لاتزال مستعرة فى المجلات الفرنسية . ويجب لكى نقف على المثال الذى يحتذى فى هذا الجدل أن نتجه إلى روسيا بدلا من انجلترا أو أمريكا . على أن هذا النموذج من الجدل معروف ؛ ففى السنوات السابقة للحرب رأينا الاستعراض الذى عرضه جيد . ولكى نجد نوعا مما يجرى بعد الحرب فقد نختار النزاع الأدبى الذى يقوم حول أندريه مالرو ؛ فقد رحب الكثير من الأدباء الشيوعيين بقصصه الأولى على أنها أدوات مفيدة فى خدمة القضية الشيوعية . ويظهر أن مالرو نفسه ظل بعض الوقت يبذل مجهوداً ليكتب ما يلائم الأدب اليسارى ؛ ولكنه فى أثناء الحرب ابتعد عن الشيوعيين . والآن يقال إنه على علاقة وثيقة بالزعيم دى جول ؛ وعلى ذلك قد صار هدفاً لحملات النقاد من الشيوعيين .

ويمكن الوقوف على نوع هذا الجدل بالرجوع إلى مقال نشره أخيراً مسيو كلود مرجان فى مجلة « الآداب الفرنسية » . فقد أراد مسيو مرجان أن يجيب على أسئلة القراء الذين سألوه : لماذا يحمل دائماً على مالرو وهو «مؤلف مهما يقل فيه فهو من كبار الكتاب اليساريين » . وهو يعترف بأن هذا هو رأى جمهور الناس ؛ ولكنه يزعم بأن مالرو قد حصل على هذه الشهرة لأنه فى أثناء بحثه عن المغامرات التى قد تؤدى به إلى أن يلعب دوراً هاما ، حدث أن صار يساريا لوقت ما . ولكن مالرو الحقيقى — على قوله — هو مترجم حياة ت. ا. لورنس الذى يعمل لتقليد ذلك الانجليزى ، وهو الوزير فى وزارة دى جول . ويقول مسيو مرجان أن مالرو ظهر فى ثوبه الحقيقى عندما قال لطلاب السربون فى بحث عن التقاليد : « إن المشكلة الحقيقية ليست هى نقل الحضارات فى أنواعها ، ولكن هى معرفة كيف أن كل صفة من الصفات الانسانية التى تصور كل حضارة ، قد وصلت إلينا ؛ وكيف صارت قيمتها لنا » . والعبارة التى أثارت سخط الشيوعيين فى هذه المحاضرة

هى : « إنه لا يهم مطلقاً أن يكون من بينكم أنتم أيها الطلاب فريق من الشيوعيين أو الذين يخاصمون الشيوعية أو أحرار أو أى شئ آخر (وأحدثت هذه الكلمات ضجة) لأن المشكلة الحقيقية الوحيدة هى معرفة ما فوق هذه الأبنية ، وبأى نوع نستطيع أن يفيد خلق الانسان من جديد . » وقد اختتم مسيو مرجان مقاله بقوله : « إنه بعد أن ظهرت هذه الأدلة على طبيعته الحقيقية لا أفهم أن يكون فى فرنسا أو فى الخارج رجل مثقف من رجال اليسار يدافع عن مالرو » .

ويقول مستر ميسون إن فحص الصحافة الأدبية الفرنسية ، التى يهب فيها النزاع حول مالرو من جميع الجهات، يدل على أن النقاد الفرنسيين لا يهتمون إلا قليلا بالقيمة الأدبية للمؤلفات ، ولما يجب من التميز الضرورى بين المؤلف ومؤلفاته ،وبين الرسالة التى يمكن استخلاصها من ملاحظات أحد أشخاص الرواية ، والتأثير العام للرواية التى يظهر فيها هذا الشخص . فالناقد الفرنسى يلقى وراء ظهره ، إذ يأخذ فى كتابة نقده ، جميع القواعد الأولية التى لا يكون النقد باهمالها صحيحاً .

ويفحص مستر ميسون رأيين ظهرا أخيراً فى كتابين عن أندريه مالرو ، ليظهر هذا النقص فى النقاد الفرنسيين . وأحد الكتابين ألفه مسيو جايتان بيكون ، والآخر ألفه مسيو كلود موریاك .

ولقد قال مسيو موریاك فى مقدمة كتابه إنه عند ما يكتب عن مؤلف مات ، أو لا يستطيع أن يتطور بعد ذلك ، يحاول أن يجد « فكرة مركزية تبيح له وتنظم عمل المؤلف فى مجموعه » . ويظهر أن مسيو موریاك التجأ إلى هذه الطريقة فى كتابيه السابقين عن جوداندو وكوكتو . على أنه ليس من المعقول أن عدداً من الروايات التى تؤلف مجموعة من العمل الأدبى ، يمكن أن تستخلص منها فكرة مركزية واحدة ، من غير أن تبتعد عن موضوعاتها ، ومن غير أن تخل بما فى كل منها من صفات شخصية ، هى التى تجعل لها قيمة ؛ فليس فى نسج الخيال ما يمكن تنظيمه وترتيبه على هذه الطريقة . والمحاولة لايجاد مثل هذه الفكرة المركزية لا تنجح إلا إذا تجاهلنا ما نسميه المميزات الأساسية . ويعتذر مسيو موریاك عن كثرة الاستشهاد بعبارات مقتبسة من مؤلفات مالرو بأن ذلك يؤدى إلى استخلاص

« أسرار المؤلف واكتشافها » .

ويسائل مستر ميسون أى نوع من النقد ينتظر من مثل هذه المبادئ ، وأية أسرار يمكن أن نعثر عليها ! فمثلا نرى مسيو موریاك يلاحظ أن « تشين » فى قصة « الحالة البشرية » يكرر حركة كأنه يريد أن يشوه نفسه ، فى كل مرة يقدم فيها على القتل ، والمؤلف نفسه هو الذى ينبهنا إلى ذلك. ومع ذلك يفرض مسيو موریاك أن المؤلف هو الذى يكرر ذكر هذه المسألة ، دون أن يشعر ، ويستخلص منها ما يستخلص من شذوذ جنسى فى طبيعة المؤلف ، مستشهداً بمقتبسات من رواياته من هنا وهناك . ولاريب فى أن مسيو مالرو لا يبعث على الشعور القوى بالحب الطبيعى ، ولا ينحى باللائمة فى أى مكان من مؤلفاته على الأعمال الشاذة التى توجد فى الأشخاص الذين يرسمهم . ومن الحق أن نقول إنه يصف مناظر فظيعة ، وأعمالا تقشعر لها الأبدان ، دون أن يكون لها شأن فى موضوع رواياته . ولكن الطريقة التى تبعها مسيو موریاك مما يخرج به عن النقد الأدبى .

والعجيب أن مسيو موریاك يقول إنه لا يهتم بروايات مالرو ، وإنما يهتم بكشف أفكار مالرو الداخلية ، وهذا النوع الكريه من النقد هو دائماً من صفات النقد الفرنسى .

أما مسيو بيكون فهو يبتدئ أيضاً ببيان القواعد التى سيستعملها فى نقده؛ وهو يدافع عن النقد الذى يتناول الأحياء من الأدباء ، ويرى أن الواجب الأول على الناقد الحقيقى هو الاهتمام بأدب عصره . وهو يتهم المعاصرين من النقاد بالخوف والعبودية . وهو يلاحظ ، وفى ملاحظته الكثير من الصدق ، أن أكثر الكتب الباحثة فى الأدب المعاصر إن هى إلا غابة من الأسماء لا تظهر فيها محاولة للتمييز بين الغث والسمين ؛ وإذا تكلم ناقد عن أديب معاصر فهو يفعل ذلك من أجل الصداقة لا من أجل الحكم له أو عليه .

ويقول مسيو بيكون إن جيل مالرو يتضاءل إذا قورن بجيل بروست وبجى وكلوديل وابوللينير وجيد وفاليرى .

ويلاحظ مستر ميسون عرضاً ، أنه قد حان الوقت لاعادة تقدير هذه الأسماء الشهيرة بميزان جدى .

ويرى بيكون أن مالرو ليس فناناً ، ومع ذلك فهو أكبر كاتب فى عصره . وهو يقول إنه لا يستطيع الحكم على روايات مالرو حكما منزها ؛ ومع ذلك فهو لايسلم لمالرو تسليما كاملا . فهو يرى فى مالرو ما رآه جيل

سابق فى جيد ، أى « إننا لا نستطيع اختيار طريقنا دون أن نحسب حساباً لطريقه » . والحقيقة أن مسيو بيكون يلجأ فى تقديره إلى العاطفة أكثر مما يلجأ للنقد الصحيح . فهو يبرئ مالرو من تقلبه بين الشيوعية وبين ديجول بقوله : « ليس من الولاء . . . أن نفصل بين مالرو وأولئك الذين يريد أن يتحد معهم » . وهو لا يفهم لماذا كتب فرنسوا مورياك فى يومياته « إن نقطة الضعف فى مالرو أنه يحتقر الانسان » ولا يحاول تفسيراً جديداً للروايات الأولى التى يظهر فيها صحة هذا القول .

ونتيجة هذه النظرة البعيدة عن النقد ، أنه يتبع التأكيدات الغامضة باعترافات خطيرة . فهو بعد أن يكتب الصفحات عن الاخوة والرجولة فى موضوعات قصصه ، يعود فيقول « إن مالرو فى الواقع لا يشعر شعوراً قويا نحو الفرد ولا نحو الجمهور » .

ومن صفات هذا الاتجاه العاطفى أن يحل بريق العبارات محل النقد . وهذه صفة يتصف بها الكثيرون من النقاد الفرنسيين الذين يكتبون فى المجلات والصحف الأدبية .

ويتناول مستر ميسون جوانب من أقوال مسيو بيكون ليظهر فيها كيف أن هذا الكاتب يتذبذب فى رأيه نتيجة لسلوكه الطريقة العاطفية ، بدلا من اتجاهه نحو النقد الصحيح .